



# حين يكتبُ الله الإيمانَ في القلب



رحلة في جغرافية القلب القرآنية:  
من شرح الصدر وتحبيب الإيمان  
إلى الثبات والرضا



تأليف: رَدَادَ السَّلَامِي

حين يكتبُ اللهُ الإيمانَ في القلب

رحلةٌ في جغرافية القلب القرآنية: من شرح الصدر وتحبيب الإيمان إلى الثبات والرضا

تأليف: رَدَّاد السَّلامِي

مدخل الآية التي فتحت القلب

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ  
أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ  
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ  
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22]

استوقفنا في هذه الآية كلمة واحدة: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾. ومن هذه الكلمة  
انفتحت رحلة طويلة في لغة القلب القرآنية: ماذا يعني أن يكتب الإيمان في القلب؟ ولماذا لم  
يقُل: جعل في قلوبهم الإيمان، أو ألقى، أو وضع؟ وكيف يختلف هذا التعبير عن تحبيب  
الإيمان، وتزيينه، وشرح الصدر له، والنور، والطمأنينة، والوجل، والإنابة، والمرض،  
والران، والغم؟

هذه الصفحات ليست تفسيراً اصطلاحياً جامداً للآية، ولا تحويلاً للفروق البلاغية إلى  
قواعد لا تتخلف؛ إنها تدبر في دقة الألفاظ، واستنطاق للسياق، ومحاولة لرؤية الخريطة التي  
يرسمها القرآن للقلب حين يهتدي، وحين يمرض، وحين يثبت، وحين يبلغ الرضا.

1. سرّ الكتابة في القلب
2. من التحبيب إلى التزيين
3. شرح الصدر والنور
4. «في القلب» و«على القلب»
5. الإيمان المكتوب والعجل المُشْرَب
6. طبقات مرض القلب
7. أحوال القلب المؤمن
8. امتحان المودة وترتيب المحبوبات
9. من «لا تجدد» إلى «حزب الله»
10. الإيمان الذي يختاره العبد والهداية التي يزيدها الله
11. من الكتابة إلى التأييد والرضا
12. خلاصة جغرافية القلب

لفظة «كتب» مدهشة؛ لأن الكتابة في أصل دلالتها ليست مجرد وجود الشيء، بل وجوده على جهة الإثبات والتقرير والتوثيق. فالشيء المكتوب أثبت من الخاطر العابر، وأبقى من الشعور الطارئ، وكأن المعنى: الإيمان عند هؤلاء لم يعد زائراً في القلب، بل صار نقشاً فيه. وحين نقارن استعمال مادة «كتب» في القرآن يزداد التعبير جمالاً. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾؛ فهذا شيء كُتب عليهم: تكليف. أما هنا: ﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾؛ فهذا شيء كُتب فيهم: تكوين. الأولى شريعة تُطلب منك، والثانية حقيقة تُنشأ فيك. وهذا فرق هائل.

والقلب هنا كأنه صحيفة العهد. هناك إيمان قد يكون على اللسان، وإيمان تتحرك به العاطفة ساعة ثم تفتّر، وإيمان تزرعه القرابة والمصلحة والخوف؛ أما هؤلاء فقد بلغ الإيمان فيهم درجة صار معها مكتوباً في موضع القرار نفسه.

ويزداد المعنى وضوحاً إذا نظرنا إلى السياق قبله: الأب، والابن، والأخ، والعشيرة. الامتحان وصل إلى أعرق روابط الإنسان. فلما أثبت القلب أن الله عنده أعلى من رابطة الدم، جاء الجزء من جنس الموضع الذي وقع فيه الامتحان: لم يبدأ الجزء بالجنة، بل بدأ بالقلب: ﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾.

كأنهم حين قدّموا الله في قلوبهم على كل محبوب، كافأهم الله بأن ثبت الإيمان في تلك القلوب.

ولم يقل: «كتب الإيمان في قلوبهم»، بل قال: ﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾، فتقدم مكان الكتابة. وكأن العين تُوجّه أولاً إلى تلك القلوب: انظروا أين وقعت الكتابة! ليست على صفحات، ولا في سجل خارجهم، بل في قلوبهم. ثم يخبرك ما الذي كتبه الله فيها: الإيمان. الإنسان يكتب أفكاره في الكتب، لكن الله إذا منّ على عبد بالثبات كتب الإيمان في قلبه. وما يكتبه الإنسان قد تحوّه الأيام، أما ما يثبتته الله في القلب فهو من أعظم عطايا الحفظ والثبات.

ثم تأتي بعدها مباشرة: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾. الترتيب لافت: كتب، ثم أيد. تثبيت في الداخل، ثم مدد من الله. فالإيمان الثقيل في مواقفه لا يكفيه الاقتناع وحده؛ يحتاج إلى تأييد من الله.

ولم يقل إنهم فعلوا ذلك بقوة شخصياتهم، بل هو كتب، وهو آيد. ثم تأتي نهاية الطريق: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. بدأت الرحلة بقلب رفض أن يجعل مودته فوق أمر الله، ثم كتب الله الإيمان في ذلك القلب، ثم أيده، ثم أدخله الجنة، ثم بلغ الغاية: رضا الله. هناك فرق بين أن تعرف الإيمان، وأن تشعر بالإيمان، وأن يُكتب الإيمان في قلبك؛ فالمعرفة قد تُنسى، والشعور قد يخبو، أما الكتابة ففيها معنى الإثبات والرسوخ.

الكاتب، وموضع الكتابة، والمكتوب

والكتابة في صورتها تستدعي ثلاثة أشياء: كاتباً، وموضعاً للكتابة، ومكتوباً. وفي الآية تجتمع الثلاثة في مشهد بالغ الجلال: الكاتب هو الله، وموضع الكتابة قلوبهم، والمكتوب هو الإيمان. فكأن القلب نفسه صار صحيفة عهد، لا تُكتب عليها كلمات من خارج، بل تُثبت في أعماقها حقيقة الإيمان.

ولم يقل: «كتب في قلوبهم إيماناً»، بل قال: ﴿الْإِيمَانُ﴾ معرفاً. وعلى جهة التذوق، ليس الحديث عن ومضة إيمانية أو خصلة عابرة، بل عن الإيمان بوصفه الحقيقة الجامعة التي صارت ذات سلطان في القلب، حتى أصبح عنوانه الداخلي ومرجعه عند التنازع. وفي صورة الكتابة معنى آخر: أن أثرها يبقى بعد انتهاء لحظة الكتابة. الصوت ينقضي، والانفعال يهدأ، أما المكتوب فيبقى مرجعاً. فإذا تكلم الهوى، أو ضغطت العصبية، أو هاجت القرابة، رجع القلب إلى ما ثبت فيه. ومن هنا يبدو «الإيمان المكتوب» أعمق من اندفاع عابرة: إنه حقيقة تبقى حين تهدأ حرارة اللحظة.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 7]

جمع القرآن هنا فعلين، لا فعلاً واحداً: حَبَّبَ، ثم زَيَّنَ. ولم يكن أحدهما يغني عن الآخر.  
تحبيب الإيمان: اتجاه الميل

الحب متعلق بميل القلب. قد يعرف الإنسان أن الشيء حق، ولكنه لا يحببه. وقد يقر أن الطاعة خير، ولكنه يجد نفسه ثقيلة عنها. فإذا حَبَّبَ الله الإيمان إلى العبد، لم يعد الإيمان مجرد قضية صحيحة في العقل، بل صار شيئاً يجذب إليه القلب.

أن تصلي لا لأن الصلاة واجب فحسب، بل لأنك تشتهي إليها. أن تقرأ القرآن لا لأن القراءة فضيلة فقط، بل لأن في القلب جوعاً إليه. أن يمر عليك يوم قل فيه ذكرك لله فتحس أن شيئاً عزيزاً فاتك. هذه ليست مجرد معرفة؛ إنها أثر من آثار: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾.

«حَبَّبَ» تعالج الإرادة: إلى أين يميل القلب؟

تزین الإيمان: كيف يرى القلب الحق

ثم قال: ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. والزينة متعلقة بسؤال آخر: كيف يرى القلب الإيمان؟ فقد يحب المرء شيئاً دون أن يرى جماله الكامل. أما إذا زَيَّنَهُ الله في قلبه، صار يرى الطاعة جميلة، والصدق جميلاً، والعفة جميلة، والسجود جميلاً، والتواضع جميلاً.

بل تحدث أعجوبة أشد: يرى ما يراه أهل الدنيا حرماناً كرامةً. هم يقولون: ماذا فاتك من الدنيا؟ وهو يقول في داخله: وماذا نجوت منه؟ هم يرون الامتناع عن الحرام فقداً، وهو يراه نجاة ونظافة للقلب.

«حَبَّبَ»: جعل القلب يميل إليه. «زَيَّنَ»: جعل القلب يرى جماله.

ولهذا جمعهما القرآن؛ لأن الإنسان يحتاج أن يحب الحق وأن يراه جميلاً. ثم جاءت الجهة المقابلة: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾. فالهداية ليست دفعاً إلى الخير فحسب، بل إعادة تشكيل للذائقة الباطنية كلها.

وبلغت النظر أيضاً اختلاف حرف الجر: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾، ثم ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. كأن التحبيب يرسم حركة القلب نحو الإيمان: محبوب إليكم. أما التزيين فيرسم صورة الإيمان داخل القلب: مزين في قلوبكم. ثم يأتي في المجادلة: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾، فيكون المكان نفسه الذي وقع فيه التزيين موضعاً للرسوخ.

﴿فَنُزِّلَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: 125]

هنا لم يقل «قلبه»، بل قال «صدره». والشرح في أصل صورته التوسعة والفتح. فكأن الإسلام، بما فيه من حقائق وتكاليف ومقتضيات للتسليم، يحتاج إلى صدر يتسع له. بعض الناس إذا جاءه أمر الله شعر أنه يضيق عليه: لماذا هذا حرام؟ لماذا أترك ذاك؟ لماذا أبلى؟ لماذا أطلب بالصبر؟ إن صدره لم يتسع بعد لمعنى العبودية. لكن الله إذا شرح صدره للإسلام تغيرت الرؤية: ما كان يراه قيداً يراه طريقاً، وما كان يراه تضيقاً يراه حفظاً، وما كان يراه تكليفاً ثقيلاً يراه شرف العبودية.

الإسلام لا يصغر حتى يلائم ضيق صدرك؛ بل يوسع الله صدرك حتى يتسع للإسلام. وعلى جهة التدبر يمكن أن نرى هذه الألفاظ متجاورة: شرح الصدر يهيئ المساحة، وتحبيب الإيمان يوجه الميل، وتزوين الإيمان يصحح الرؤية والذائقة، وكثابة الإيمان تشير إلى الرسوخ والثبات. صدر يشرح، وقلب يحب، وقلب يرى الجمال، وقلب يكتب فيه الإيمان.

﴿أَفَنَنْتَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 22]

بعد الشرح جاء النور. والنور ليس مجرد قبول الحق، بل إبطاره. وعلى جهة تقريب الصورة: شرح فيتسع، ونور فيبصر، وحب فيميل، وزينة فيستجمل، وكثابة فيرسخ. هذا ليس إنساناً يحمل الإيمان كحمل على ظهره؛ هذا إنسان صار الإيمان جزءاً من تكوينه الداخلي. وكل هذه الأفعال منسوبة إلى الله: يحب، ويرى، ويشرح، ويكتب. فلا يتحول الإيمان إلى سبب للعجب، بل إلى سبب للامتنان.

لماذا شرح الصدر للإسلام وحُب الإيمان؟

يلفت النظر أن القرآن قال: ﴿حَبَّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانُ﴾، بينما قال: ﴿يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾. ولعل في اختلاف الاسمين مناسبة للمقام: الإسلام بما فيه من معنى الانقياد والتسليم يناسبه شرح الصدر ليتسع للقبول والحمل، أما الإيمان بما فيه من تصديق وطمأنينة باطنة فيناسبه الحب والزينة والكثابة في القلب.

وعلى جهة التأمل يمكن تلخيص الصورة هكذا: الصدر يُفتح للإسلام، والقلب يُعمر بالإيمان. وليس هذا تقسيماً اصطلاحياً لا يتخلف في كل موضع، ولكنه يبرز جمال اختيار اللفظ في هذين السياقين.

لا يصح أن نجعل «في» للهداية دائماً و«على» للضلال دائماً؛ فالقرآن يقول: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، ويقول عن الوحي: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٠١) عَلَى قَلْبِكَ﴾. لكن الصورة التي يصنعها الفعل مع حرف الجر تستحق التدبر.

[الشعراء: 193-194]

«كتب في قلوبهم»

هنا القلب مكان للكتابة. ليس الإيمان شيئاً موضوعاً على سطح القلب، بل حقيقة وقعت في داخله. فالإيمان ليس قشرة دينية تحيط بالإنسان؛ بل معنى دخل إلى موضع السر منه.

«ختم على قلوبهم»

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]

الختم له صورة أخرى. الختم يقع على الشيء لينع الدخول إليه أو الخروج منه. فالمراد ليس أن الختم صار مضمون القلب، بل أن حاجزاً وقع عليه خال بينه وبين الانتفاع بما ينبغي أن يصل إليه. ومن هنا تناسب «كتب في» مع الإيمان، و«ختم على» مع المنع.

«وربطنا على قلوبهم»

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ [الكهف: 14]

هنا «على» إيجابية؛ لأن الربط بطبيعته يحتاج إلى شيء يُشدُّ ويُمسك. القلب في لحظة الخوف قد يضطرب ويتفلت، فجاء التثبيت الإلهي وأحكمه. مع الإيمان: كتب في القلب. ومع الثبات عند الخوف: ربط على القلب. ومع الحرمان من الانتفاع: ختم على القلب. كل فعل يرسم حالة مختلفة.

الحرف وحده لا يحمل الخير والشر؛ الصورة تشكل من الفعل والحرف والسياق. ومن هنا تبدأ جغرافية القلب في القرآن: يكتب فيه، ويرُزَن فيه، ويرُبط عليه، ويُختم عليه، ويكون فيه مرض وزنec، ويطمس، ويوجل، ويخشع، وقد يعمي. فالقلب في التصور القرآني ليس مجرد موضع للعاطفة، بل مركز الإدراك الأخلاقي والإيماني للإنسان. لماذا القلب لا العقل؟

ولم تقل الآية: «كتب في عقولهم الإيمان»، مع أن الإيمان يتضمن معرفة وتصديقاً؛ لأن المقام الذي يتحدث عنه الآية ليس معرفة باردة. القضية تنصل بالأب والابن والأخ والعشيرة، أي إنها تدخل منطقة الحب والولاء والعاطفة والانتماء. ولذلك جاء موضع الكتابة هو القلب.

في مثل هذا الامتحان لا يعود السؤال: ماذا تعرف عن الله؟ بل: من الأولى بقلبك حين تتعارض المحبوبات؟ وهنا تظهر حقيقة لم تكن لتظهر في زمن السعة: بعض حقائق القلب لا تنكشف حتى تراحمها محبوبات أخرى.

فثمة فرق بين من يحب الله مع الأشياء، وبين من يحب الأشياء تحت سلطان محبته لله. الأول قد تبقى محبته غير ممتحنة، أما الثاني فقد صار لله المركز الذي ترتب تحته سائر الروابط.

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: 93]

لم يقل: كُتِبَ في قلوبهم العجل، كما لم يقل في المؤمنين: أشرَبُوا في قلوبهم الإيمان. والتعبير يرسم فرقاً دقيقاً، معنى الآية: أشرَبُوا حب العجل، أي خالط حبه قلوبهم حتى تمكن منها. لكن القرآن لم يصرح بكلمة الحب، بل جعل الصورة كأن العجل نفسه قد تسرب إلى القلوب.

الكتابة فيها معنى الإثبات والرسوخ والوضوح. أما الإشراب ففيه معنى التسرب والمخالطة والتغلغل. الماء حين يُشرب لا يبقى خارج الجسد، بل يتخلل أجزائه. وكأن حب العجل لم يعد فكرة أمامهم، بل صار شيئاً تشربته القلوب.

الباطل قد يبدأ فكرة صغيرة، ثم يصير ميلاً، ثم عادة، ثم تعلقاً، ثم يتشربه القلب. وهذا يفسر أحوالاً كثيرة: أحياناً تظن أنك تناقش إنساناً في رأي، لكنك في الحقيقة تقترب من شيء أشربه قلبه. لذلك يغضب له كما يغضب لذاته؛ لأنه لم يعد شيئاً يملكه، بل صار شيئاً يملكه هو.

العجل كان جسداً أمامهم، ثم يخبر القرآن أن أثره دخل القلوب. وهنا معنى موج: الصنم لا يكتمل خطره حين ينصب في الساحة فقط، بل حين يُنصب في القلب. تستطيع أن تحطم حجراً في ساعة، لكن قد يحتاج الإنسان عمراً ليهدم صنماً داخلياً اسمه الجاه، أو المال، أو الجماعة، أو الزعيم، أو الشهرة، أو الذات.

وفي آية العجل جاء: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فلا تجعلهم الصورة ضحايا بلا إرادة. هناك قابلية صنعتها المواقف والاختيارات. فالقلب لا يبقى محايداً تجاه ما يكرره الإنسان. ما تكثر النظر إليه وتبرره والدفاع عنه ومنحه الولاء قد لا يبقى خارج قلبك طويلاً.

وفي المجادلة: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾. وفي البقرة: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾. هنا حق مكتوب، وهناك باطل مشرب. وكأن الحياة كلها ورشة خفية يتشكل فيها القلب يوماً بعد يوم.

وילفت النظر أيضاً أن قوله في العجل جاء بصيغة المبني للمجهول: ﴿وَأَشْرَبُوا﴾، بينما جاء في الإيمان بالفعل المسند في السياق إلى الله: ﴿كَتَبَ﴾. وعلى جهة التذوق البلاغي، يظهر في مقام التكريم منة الله مباشرة، بينما يركز مقام العجل على صورة ما أصاب القلوب من التشرب بسبب كفرهم.

ما تفعله خارج قلبك يعود إلى قلبك

ومن هنا يبرز قانون تربوي مخيف وجميل في آن: ما يفعله الإنسان في الخارج لا يبقى خارجاً. تكرار الصدق يبني صدقاً، وتكرار العفو يبني سعة، وتكرار الحسد يبني حسداً، وتكرار التبرير للباطل يطفئ حساسية القلب تجاهه. أنت حين تطيع لا تنجز فعلاً فقط؛ أنت تصنع قلباً. وحين تعصي وتصبر وتبرر، لا ترتكب واقعة فقط؛ أنت أيضاً تصنع قلباً. ولهذا تصبح الأيام مصنعة باطنياً: الأعمال تمر، لكن آثارها تستقر.

القرآن لا يصف فساد القلب بكلمة واحدة، بل يلتقط حالات مختلفة من الخلل. ولا يلزم أن تكون هذه الحالات سلباً ثابتاً يمر به كل إنسان بالترتيب نفسه، لكن الفروق بينها ترسم مشهداً دقيقاً.

الرَّان: أثر يتراكم على القلب

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]

الران ليس القلب نفسه، بل شيء يعلوه. والقلب في الأصل ما زال هناك، لكن على صفائه غشاء تراكم من أثر الكسب. والعبارة المفتاح: ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. فالران لا ينزل فجأة بلا سبب، بل يتصل بما كسبه.

بعض الأفعال لا تنتهي بانتهاء لحظتها؛ بل تترك نسخة منها على القلب. كأن لكل معصية غباراً، وإن لم يُمسح بالتوبة تراكم. فالذنوب ليس مجرد حدث في السجل؛ إنه أيضاً أثر في الباطن.

المرض: خلل في آلة التلقي

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10]

هنا لم يعد الحديث عن شيء على القلب، بل عن شيء فيه. والمرض يعني أن العضو موجود لكنه لا يعمل على سويته. القلب المريض قد يسمع ويفهم، لكنه يستقبل الحق استقبلاً مختلاً. وقد يرى الحق تشدداً، والباطل مرونة، والثبات غلواً، والتنازل حكمة، والطاعة خسارة، والشهوة حرية. المشكلة ليست في المعلومة وحدها، بل في آلة التلقي.

الزيف: انحراف عن الاتجاه

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]

المرض خلل، أما الزيف فهو انحراف عن الاتجاه. والآية تجعل البداية منهم: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾، ثم جاء الجزء. الانحراف الذي يختاره الإنسان مرة قد يتحول، مع الإصرار، إلى انحراف يستحكم فيه.

القسوة: فقدان اللبونة والاستجابة

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: 74]

القلب القاسي قد يسمع ما يبكي غيره ولا يتحرك، ويرى الموت ولا يرتدع، وتقرأ عليه الآية فلا يخشع. تمر به الموعظة كما يمر الماء على الحجر. الخطر ليس الجهل وحده؛ الخطر أن تسع المعرفة بينما تضيق قابلية القلب للتأثر.

بعض الانهيارات تبدأ حين يفقد القلب حساسيته، لا حين يفقد معلوماته.

انلتم والعمى

﴿حَمَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]

انلتم صورة أشد من مجرد المرض: فيه معنى الإغلاق والإحكام بعد الإعراض. ثم تأتي صورة العمى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]. قد يرى الإنسان المشهد ولا يرى معناه؛ يرى الموت ولا يرى مصيره، ويرى النعمة ولا يرى المنعم، ويرى الآيات ولا يرى الدلالة.

ومن هنا يمكن تقريب خريطة المرض: أثريتراكم، ومرض يسكن، وزيف يميل بالاتجاه، وقسوة تفقد القلب استجابته، وختم يمنع الانتفاع، وعمى يحرم البصيرة. ليست هذه قاعدة ترتيبية صارمة، لكنها صور قرآنية متعددة للخطر نفسه: أن يتغير القلب حتى لا يعود يتلقى الحق كما ينبغي.

علامة القلب الحي

ومن أعمق الفروق أن القلب الحي ليس هو القلب الذي لا يخطئ، بل القلب الذي لا يزال قادراً على التأثر: توجهه الخطيئة، وتهزه الآية، ويوقظه التذكير، ويفرحه الخير، ويرده الندم إلى الطريق.

ولهذا ربما كان أخطر ما يصيب القلب ليس أن يزل، بل أن يفقد القدرة على التأثر بزلته. حين لا يعود الذنب يؤلم، ولا الموعظة تحرك، ولا الحق يوقظ؛ فهنا تبدأ القسوة قبل أن يشعر صاحبها بما خسره.

وكما أن القلب المريض لا يوصف بصفة واحدة، فإن القلب المؤمن ليس سائماً على حالة واحدة. قد يكون مطمئناً في موطن، وجلاً في موطن، منيباً في موطن، مخبتاً في موطن، ثم يبلغ السلامة. وهذه الصفات لا تتناقض، بل تتكامل.

#### القلب المطمئن

﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

الطمأنينة ليست بروداً ولا غيابةً للشاعر، بل استقرار بعد اضطراب. كأن القلب كان يبحث عن مركز ثقله حتى وجده في الله. لذلك قد يكون الإنسان في بلاء لكنه مطمئن، وقد يكون في سعة لكنه مضطرب. الطمأنينة ليست وصفاً للظرف، بل لعلاقة القلب بالله داخل الظرف.

#### القلب الوجلي

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]

كيف يطمئن القلب بذكر الله ثم يوجل إذا ذكر الله؟ هنا جمال التوازن: يطمئن بالله، ويوجل من الله. يطمئن إلى رحمته ووعدته وحكمته، ويوجل من مقامه وجلاله وحسابه. في القلب المؤمن أمان القرب وهيبة المقام.

إنه يجمع في آن واحد سكينه المحب ورهبة العبد. فلا خوف يقطعه عن الرجاء، ولا طمأنينة تنتقله إلى الغفلة؛ بل قرب يورث السكون، وجلال يورث الهيبة.

#### القلب المخبت

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: 34]

الإخبات يحمل معنى الخضوع والتواضع والسكون لله. المخبت ليس فقط من يخاف؛ بل من هدأ كبرياؤه أمام الله. انخفضت نفسه، وسكنت خصومته الداخلية، ولم يعد واقفاً أمام الوحي يريد أن يملئ شروطه.

#### القلب المنيب

﴿مَنْ حِثِّي الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: 33]

الإنباء فيها معنى الرجوع. القلب المنيب قلب له جهة يعود إليها. مهما ابتعد رجع، ومهما زل رجع، ومهما شغلته الدنيا رجع. لا تعني الإنابة أن العبد لا يخطئ، بل تعني أن خطأه لا يغير قبلته الداخلية. القلب المنيب يعرف بيته، وبيته هو الله.

#### القلب السليم

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 89]

السلامة وصف جامع: سلامة من الشرك والنفاق، ومن أن يحتل غير الله المركز الذي لا ينبغي أن يحتله إلا الله. والملفت قوله: ﴿أَتَى اللَّهَ﴾. كأن القلب هو الشيء الذي يصطحبه الإنسان معه إلى الله؛ يترك المال والجاه والعشيرة، ويأتي بقلبه.

وعلى جهة تقريب الفروق: القلب المطمئن وجد مستقره، والوجل عرف عظمة من يقف بين يديه، والخبث انخفضت نفسه وخضعت، والمنيب عرف طريق الرجوع، والسليم نجا من أن ينازع غير الله مقامه في الداخل.

الإيمان ليس أن تتوقف حركة القلب، بل أن تتوحد وجهة القلب.

القلب المريض تتعدد آلهته الداخلية: شيء من الهوى، وشيء من الخوف، وشيء من الناس، وشيء من المال والسمعة. أما التوحيد الحقيقي فيجمع هذه الأجزاء المتنازعة تحت سلطان واحد: الله. ومن هنا تصبح الطمأنينة ثمرة من ثمرات التوحيد: التوحيد يجمع القلب بعد تفرقه.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: 29]

هذا المثل في الشرك والتوحيد يكاد يرسم الداخل أيضًا: قلب تتجاذبه قوى متشاكسة، وقلب سلم وجهته لواحد. الأول ممزق بين أرباب كثيرة، والثاني مستقر تحت سلطان رب واحد. ومن هنا يمكن أن نفهم الطمأنينة بوصفها ثمرة من ثمرات جمع القلب بعد تفرقه.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾

هذه الآية تبدأ من المودة؛ أي من أعمق مناطق القلب. ثم بعد أن يثبت القلب في الامتحان تعود إليه: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾. بدأت بالقلب وعادت إلى القلب. كأن المعركة كلها جرت هناك: ليس السؤال الأول ماذا قالوا، بل من أحبوا؟ وليس الجزء الأول ماذا أعطوا، بل ماذا كتب في قلوبهم؟

الإنسان يحب أباه وابنه وأخاه وعشيرته، وهذا من الفطرة. لكن الامتحان يبدأ حين يصطدم محبوبان: محبوب فطري، ومحبوب أعلى. هناك يظهر من يسكن المركز. فالتوحيد ليس مجرد كلمة تقال، بل أن يكون الله هو المركز الأعلى للقيمة والحب والطاعة والولاء. والتعبير لا يلغي الرحمة والبر والعدل، ولا يجعل كل اختلاف «محادة». فالآية قالت: ﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، ولم تقل: من خالفكم، أو من اختلف معكم، أو من أساء إليكم. المعيار ليس الخصومة الشخصية، بل موقف المحادة لله ورسوله. وهذه دقة تمنع أن تتحول الآية إلى ستار لعداوات النفس أو الجماعة.

وذكر الآباء والأبناء والإخوان والعشيرة يستدعي دوائر القرب: الأب أصل، والابن امتداد، والأخ سند قريب، والعشيرة محيط اجتماعي وهوية. فالقرآن يمر على أوتار القلب الأشد حساسية ويقرر أن القرابة لا تصبح مرجعية فوق الوحي. الإيمان لا يطلب منك أن تنزع إنسانيتك؛ بل أن تمتع إنسانيتك من أن تتحول إلى مرجعية فوق الحق.

فالقرآن لا يريد قلباً وحشياً، بل قلباً مرتب الولاءات: يرحم، ويبر، ويعدل، لكنه لا يجعل القرابة أو الهوى سلطة فوق الحق. لذلك كان التعبير بالمحادة لله ورسوله لا بمجرد الاختلاف مع المؤمن أو الخصومة الشخصية معه.

ومن هنا تبدو المقابلة بين أول الآية وآخرها: في أولها قرابة الدم، وفي آخرها ﴿حِزْبُ اللَّهِ﴾. لا يلغي الإيمان النسب، لكنه يضع فوقه رابطة أعلى في معيار الحق. العشيرة تجمع الأجساد بالنسب، والإيمان يجمع القلوب بالوجهة.

قوة «لا تجدد»

لم يقل: لا تفعلوا، ولا: لا ينبغي، بل قال: ﴿لَا تَجِدُ﴾. الصياغة لا تنشئ حكماً فحسب، بل تكشف عن عدم اجتماع الإيمان الصادق مع مادة من يتخذ موقف الحادّة لله ورسوله على حساب حق الله. كأن الآية تقول: اجث عن الإيمان الصادق حيث شئت؛ لن تجده مجتمعاً مع هذا النوع من الولاء القلبي المتعارض معه.

ولهذا فالقضية انتقلت من السلوك المطلوب إلى هوية القلب. و«يوادون» أخص من مجرد عاطفة بشرية عابرة؛ فيها معنى الود والقرب والموالة. ومن هنا لا يصح أن تفهم الآية إلغاء للرحمة أو العدل، بل ترتيباً للولاء حين يقع التعارض الحقيقي.

«أولئك» مرتين

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾، ثم عاد: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾. اسم الإشارة هنا يرفعهم في مقام التنويه ويعينهم بعد اكتمال الصفات. وكأن الاسم «حزب الله» لا يبدأ به الإنسان شعاراً، بل يناله بعد أن تكشف الآية عن قلبه وموقفه وثباته وتأييد الله له. الانتماء إلى حزب الله في هذه الآية ليس شعاراً يعلق على الصدر؛ بل حقيقة تكتب أولاً في القلب.

وهذا فرق بين هوية يعلنها الإنسان عن نفسه، وهوية يشهد الله بها للإنسان. الآية أخرج الاسم إلى النهاية: بعد المودة المنضبطة، والإيمان المكتوب، والتأييد، والجنة، والرضا، جاء الحكم: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾.

«ألا إن... هم المفلحون»

ثم يأتي الخاتمة: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. «ألا» للتنبيه، و«إن» للتوكيد، وضمير الفصل «هم» يزيد الجملة إحكاماً. والخاتمة لم تقل الغالبون فقط، ولا الأقوياء، بل «المفلحون». والفلاح أوسع من الانتصار اللحظي؛ قد يبتلى المؤمن ويضيق عليه، لكن ميزان النهاية هو ميزان الله.

وهذا يعيد معنى اليوم الآخر في أول الآية: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. من آمن بالآخرة لا يختصر النجاح في سؤال: من ربح اليوم؟ بل يسأل: كيف ينتهي الأمر عند الله؟

والبناء كله متماسك: تبدأ الآية بالله واليوم الآخر، وتحرك في منطقة القلب، وتنتهي بحزب الله والفلاح. من «لا تجدد» في أولها، إلى «أولئك» في وسطها، إلى «ألا إن» في آخرها: اختبار، ثم شهادة، ثم تكريم، ثم إعلان فلاح.

تفتح الآية باباً مهماً: بدأت بقولها ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، وهذا وصف لفعلهم واستجابتهم. ثم قالت: ﴿كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ﴾، وهذا فعل منسوب إلى الله. وكأن في المشهد حركتين: إيمان من العبد استجابة، وكتابة من الله تثبيتاً.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]

البنية تتكرر: اهتدوا فزادهم، آمنوا فزدناهم. الهداية ليست قطعة جامدة تعطى مرة واحدة، بل علاقة متحركة بين استجابة العبد وفضل الرب. تأتي بداية النور، فتستجيب، فيأتي نور آخر. تعمل بما عرفت، فيفتح لك ما لم تعرف.

لما حفظوا للإيمان حقه، حفظ الله لهم الإيمان.

والطاعة ليست ثمرة للإيمان فقط، قد تصبح سبباً في زيادة الإيمان. الإيمان ينتج العمل، والعمل الصادق يعيد تقوية الإيمان. وعلى جهة تقريب المعنى: إيمان، ثم طاعة، ثم زيادة إيمان، ثم طاعة أعمق، ثم ثبات أشد.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]

أنت لا تسير إلى الله لأنك تملك كل النور، بل تسير بما عندك من نور، فيعطيك الله نور الطريق التالي. فلا تنتظر أن تشعر بالكمال حتى تعمل؛ اعمل بما تعرف من الحق الآن، فقد يكون الطريق نفسه سبباً في أن يصنع الله فيك القوة اللازمة لإكماله.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا﴾ [النساء: 66]

هذه الآية مفتاح عجيب: الفعل نفسه يزيد التثبيت. ليس التثبيت شرطاً كاملاً يسبق الفعل دائماً. أحياناً تفعل الحق رغم ارتجافك، فيكون فعلك للحق سبباً لأن تصبح بعد ذلك أقل ارتجافاً. تطيع رغم ثقل النفس، فتخف الطاعة في المرة التالية. تصبر رغم الألم، فيقوى فيك الصبر.

لا تنتظر قلباً كاملاً لتعمل؛ بعض كمال القلب يولد من العمل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29]

حتى البصيرة ترتبط بحال القلب والعمل. هناك أشياء لا يراها القلب بوضوح حتى ينظف موقفه. التقوى قد تفتح فهماً، والطاعة قد تفتح بصيرة، والصدق قد يزيل غشاوة المعرفة وحدها لا تكفي إذا وقف الهوى بين الإنسان وبين دلالتها عليه.

الهداية تُستقبل بالطاعة، والطاعة تستجلب مزيداً من الهداية.

وفي الجهة المقابلة يعمل قانون الخطر: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾. بعض العقوبات لا تأتي في المال ولا في الجسد، بل في القلب نفسه: يعصي الإنسان فلا يفقد من دنياه شيئاً، لكنه يفقد درجة من حساسية قلبه. لذلك كان أخطر ما في الذنب ما قد يجره وراءه من ذنب وقسوة وغشاوة.

الحنة التي تصنع يقيناً

في أحيان كثيرة لا ينتظر الله من العبد قلباً لا يرتجف، بل صدقاً يعمل مع الارتجاف. تفعل الحق وأنت تخاف، ثم يصبح فعلك للحق سبباً لأن تكون في المرة التالية أقل خوفاً. تصبر رغم الألم، فتكتشف أن للصبر عضلة روحية تقوى بالممارسة.

ولهذا قد يدخل المؤمن امتحاناً يخشى أن يسلبه إيمانه، فإذا صدق خرج منه وإيمانه أشد مما كان قبله. بعض المحن تتحول عند أهل الصدق إلى مصانع يقين: الموقف واحد، لكن قلباً يخرج منه منكسراً للهوى، وقلباً آخر يخرج منه أرسخ.

والفارق العميق هو: لمن انحاز القلب حين تعارضت المحبوبات؟ فإذا حفظ العبد للإيمان حقه في موطن الامتحان، كان من أعظم رجائه أن يحفظ الله له إيمانه ويزيده ثباتاً.

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾

الآية لا تجعل الروح الداخلي يغني عن المدد. وهذه تربية عظيمة للنفس: قد يبلغ الإنسان منزلة في الإيمان، ومع ذلك يظل محتاجاً إلى الله في اللحظة التالية. لا يقول: ثبت قلبي، إذن استغنيت. بل كلما ثبت ازداد فقراً إلى التأييد.

ما كُتِبَ فيك لا يستغني عن مدد من كتبه.

الإيمان من الله هداية، والثبات منه تأييد، والجنة منه فضل، والرضا منه كرامة. حتى أعلى المقامات محاطة بالمنة من أولها إلى آخرها.

ثم تأتي الجنة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. القلب أولاً، ثم التأييد، ثم الجنة. وكأن الجنة ثمرة قلب قبل أن تكون ثمرة جسد. ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾

الرضا أعمق من مجرد الإنعام. النعمة شيء يعطيك الله إياه، أما الرضا فهو علاقة بينك وبين الله. وفي أول الآية امتحان للمودة، وفي وسطها تثبيت للإيمان، وفي آخرها رضا. الحب يمتحن، والإيمان يثبت، والرضا يمنح.

ومن أرق التقاطات الآية أن المؤمن في أولها قد يضحى ببعض الرضا البشري حين يتعارض مع رضا الله، وفي آخرها يعطى ما هو أعظم من كل رضا بشري: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾. من ترك رضا الخلق حين تعارض مع الحق لم يخرج خاسراً في الميزان النهائي؛ بل غايته رضا الله.

بدأت الآية بمودة تُختبر، ثم إيمان يُكتب، ثم روح تؤيد، ثم جنة تُمنح، ثم رضا يُعلن، ثم هوية ختامية: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾. ولذلك فهذه الآية، من أولها إلى آخرها، قصة قلب.

الإيمان المكتسوب في القلب ليس فكرة جامدة؛ إنه حقيقة تنتج ولاءً وثباتاً وتضحية وطمأنينة وإنابة وإخباتاً. ثم تنتهي الرحلة إلى الرضا، فكأن القلب الذي ضبط محبته في أول الآية مُنح في آخرها أعلى ما يطلبه: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

إذا جمعنا الألفاظ التي مررنا بها ظهرت أمامنا خريطة قرآنية واسعة للقلب، لا على أنها مراحل اصطلاحية ثابتة، بل على أنها صور متكاملة تكشف أحواله:

- شرح الصدر: اتساع لقبول الإسلام وحمله.
- النور: بصيرة يرى بها القلب الحق.
- تحبيب الإيمان: ميل القلب إليه.
- تزيين الإيمان: رؤية جماله في الداخل.
- كتابة الإيمان: رسوخ وثبات في القلب.
- الربط على القلب: تثبيت عند الزلزلة والخوف.
- الطمأنينة: استقرار القلب بالله.
- الوجل: هيبة العبد من مقام ربه.
- الإخبات: انخفاض الأنا وخضوعها لله.
- الإنابة: وجود طريق دائم للرجوع إلى الله.
- السلامة: أن يأتي العبد ربه بقلب نجا من منازعة غير الله لمقامه.
- الران: أثر الكسب حين يتراكم على القلب.
- المرض: خلل في استقبال الحق وتذوقه.
- الزئج: ميل عن الاتجاه.
- القسوة: فقدان الليونة والاستجابة.
- الختم: إغلاق يمنع الانتفاع.
- عمى القلب: رؤية المشهد مع فقدان البصيرة بمعناه.

وهكذا لا يكتفي القرآن بأن يقول: هذا قلب صالح وهذا قلب فاسد، بل يكشف كيف يصلح وكيف يفسد. الأفعال تبني القلب. ما يفعله الإنسان في الخارج يترك أثراً في الداخل. يكرر الصدق فيبني صدقاً، ويكرر الغفو فيبني سعة، ويكرر التبرير للباطل فتضعف حساسية قلبه تجاهه.

الحياة ليست فقط سلسلة أعمال تُحصى؛ إنها أيضاً ورشة خفية يتشكل فيها القلب يوماً بعد يوم.

كل ما يفعله الإنسان في الخارج يترك نسخةً منه في الداخل. ولهذا لا ينبغي أن يسأل نفسه فقط: ماذا فعلت اليوم؟ بل أيضاً: أي قلب صنعته أفعالي اليوم؟

ولذلك فإن أعظم سؤال يخرج به الإنسان من هذه الرحلة ليس: ماذا أعرف؟ ولا: ماذا أقول؟ بل: ماذا يحدث الآن في قلبي؟ هل يزداد صفاء؟ هل ما زالت الآية تهزه؟ هل ما زال الذنب يؤلمه؟ هل ما زال الخير يفرحه؟ هل ما زال يعرف طريق الرجوع؟ وعندما نعود أخيراً إلى الجملة التي بدأت منها الرحلة: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾، ندرك أنها ليست مجرد وصف بأنهم مؤمنون، بل تصوير لإيمان صار ثابتاً عميقاً حاكماً للقلب بعد أن ظهر صدقه في الامتحان. لم يعد الإيمان فكرة يعرفونها، ولا عاطفة تعلو وتهبط، ولا شعاراً يعلنونه؛ بل صار حقيقة راسخة في الداخل تؤثر في الحب والولاء والاختيار والموقف. الإيمان الصادق يبدأ اختياراً لله، ثم يتحول بفضل الله إلى رسوخ في القلب، ثم يظهر ثباتاً في الحياة، ثم ينتهي برضا الله. ومن هنا تنغلق الدائرة: الله أولاً، والقلب في الوسط، ورضا الله في النهاية. وما بينهما قصة الإيمان كلها.